من سير الخالدين

حيـــاة المازنى *

للأستاذ محمد محمود حمدان

(قال بين الصبيان من اتفق له ما اتفق لى من التجارب) « المازنى »

— ٢ —

بداية الشوط

انتقل المازنى إلى مرحلة جديدة ، أو منتظمة ، فى الدراسة عندما دخل المدرسة « القربية » على مقربة من داره . وكانت على عهده كما يصفها :

« مثلما ضمت سبيل من صنوف الخلق وفدا

أو كيوم الحشر ، أو وقفة عرفات على الأقل » . وكان ناظرها جاراً وصديقاً لأبيه . فأفادته هذه الصداقة اهتمام الناظر به ورعايته لشأنه ، كما أنزلته بين أترابه التلاميذ منزلة مرموقة ، فجعلوه رسولا بينهم وبين الناظر يتصلون به إلى إجابة مطالبهم وتحقيق رغائبهم .

وكان الطفل أعلم بموطن الضعف فى نفس ناظره ، فما كان يأتيه من ناحية صداقته لأبيه وكفى ، بل يتحرى فى مخاطبته أن ينعته دائماً بلقب « البكوية » ، وكان حديث عهد به ، فلا يقصده مرة ويكرر على سمعه هذا اللقب مرات ، حتى يرتد مطيب الخاطر مقضى الرغبة مستجاب الرجاء .

ويذكر المازنى أنه كانت فى هذا الناظر سذاجة عجيبة ، وأنه كان جاهلا وإن تظاهر بالعلم بكل شىء . ومن نوادره التى يرويها أنه دخل يوماً إحدى الفرق وكان الدرس درس ترجمة . . « وكان المعلم غائباً ، ولم يكن هو يعرف ذلك وإن كان فيما يزعم إداريا حاذقاً . ولكنه سمع ضجتنا العالية فسأل فقيل له إن هذه الفرقة ليس فيها معلم ، فلم يندب غيره بل جاء هو إلينا بنفسه — وبطوله وعرضه — وسألنا « مالكم يا أولاد ؟ » قلنا « ياسعادة البك المعلم غائب » . قال « الدرس إيه ؟ » قلنا « ترجمة ياسعادة البك » . فانشرح صدره واغتبط وأيقن أنه سيطل يسمع منا ما يسره فقال « طيب ، وإيه يعنى ؟ » . فقلنا ياسعادة البك لم نفهم الدرس السابق ياسعادة البك » . فسأل عن هذا الدرس السابق الذى استعصى علينا فقلنا له إنه كان يحاول أن يعلمنا النفى فى اللغتين العربية والإنجليزية ولكنا لم نفهم عنه . فأعرب لنا بعبارات صريحة عن دهشته وتعجبه لوزارة المعارف التى تعين مدرسين لا يحسنون تفهيم التلاميذ ، وأكد لنا أنه يعطف علينا لأننا نؤدى للوزارة أجور التعليم كاملة ولا نتعلم مع ذلك شيئاً . ثم قال إن المسألة بسيطة وإن النفى سهل جدا وإن أدواته فى اللغة العربية معروفة وهى « لا ولم وان الخ » والأمثلة سهلة ومعروفة ، وشرع يسوق الأمثلة فلما بلغ « لم » قال « مثلا . . لم كتب . لم ضرب . لم ذهب » فانفجرنا ضاحكين ولنا العذر . فلما سكنت العاصفة بعض السكون قال يوبخنا ويزجرنا ويعظنا « تضحكون ؟ إسكون .. إسكون » فلم يبق منا طفل على مقعده من شدة الضحك . ولم يسكتنا الخوف منه ، وإنما أسكتنا الألم الذى صرنا نحسه فى بطوننا من الضحك الطويل » .

ومن معلميه فى هذه المدرسة شيخ كانوا يسمونه فيما بينهم « الأسد » وكان قاسياً غليظ الكبد سريع الغضب ، ومن لوازمه « خيزرانة » قصيرة يدسها فى طيات ثيابه . . « وقد أطعمتنى مراراً كثيرة ، وذاقتها كفاى وذراعاى وساقاى وظهرى وعرفت طعومها كلها بالخبرة الطويلة والتجربة المتادة » .

وإلى هذه المدرسة ، أو إلى معلم الخط فيها ، يعزو المازنى رداءة خطه ، وحكاية ذلك ما رويه هنا عنه .

« كان الشيخ الذى يعلمنا الخط وحشاً ، أعنى أنه لم يكن وحشاً حقيقيا ، وإنما كان وحشاً آدميا غليظ القلب منحوس الضريبة ، وكان بناء المدرسة عتيقا متداعيا ، والأبواب ذات مصراع واحد ، وكانت إذا فتحت تسند بالحجارة . فكان هذا الشيخ لا يعاقب التلاميذ إلا بشىء واحد . يضع الواحد راحته على المكتب ، ويجىء الشيخ بحجر الباب ويدق به عقل الأصابع . وكان هذا عقابه الوحيد على رداءة الخط ، وعلى كل خطأ أو ذنب يرتكب . فكيف يرجى ممن تدق أصابعهم بالحجارة أن يحسنوا الخط ويجيدوا الكتابة ؟ فهذا سبب أن خطى ردىء » .

وأتم الطفل دراسته الابتدائية . وجاء أخوه الأكبر إلى أمه يشير عليها بأن تكتفي من تعليمه بهذا القدر . على أنها أبت ذلك وأصرت على إبائها حين ألح عليها ، حتى أنذرها ذلك الأخ أنه مانع عنهما بعد ذلك معونته وقابض يده . ولعل هذه الحادثة قد زادت المازني الطفل شعوراً بوطأة الفقر وحنقاً عليه ، ودفعته إلى بذل الجهد في سبيل تحقيق رغبة أمه في أن يتم تعليمه إلى نهايته . وكانت الأيام قد أنضجته وتقدمت به فساعده ذلك على أن يصمد لتجارب الحياة وأن يستوعب جيداً دروسها القاسية

ودخل المازني المدرسة الخديوية وهو على أعتاب الشباب . ولعل هذه الفترة — فترة الدراسة الثانوية — كانت بداية التكوين الحقيقي للرجل الذي صاره من بعد . ولعلها كذلك كانت بداية ميله إلى القراءة والأدب ، فما كانت الدراسة الابتدائية لتسمح بإظهار مثل هذا الميل ، فضلا عن أن سنه لم تكن تهيؤه قبل ذلك للقراءة الواسعة أو الصبر عليها

ولا يشير المازني كثيراً إلى فترة دراسته الثانوية فيما كتب عن ذكريات طفولته وصباه ، فلعلها قد تقضت في الجد الصرف من ناحية مشقة التحصيل ، وفي محنة قاسية من شظف الرزق والعيشة . على أنه يحدثنا أنه في أخريات هذه الفترة — وكان قد بلغ السادسة عشرة — اعترضت الحمى طريقه وألحت وطأتها عليه ، وقضى طيلة صيف ذلك العام وهو يعاني وقدتها . ويقول « في إحدى الليالي ثقلت على وطأة المرض جدا ، حتى جزعت أمي على ما أخبرتني بعد ذلك ، وكادت توقن أني هامة اليوم أو الغد ، لولا أن الأم لا تفقد أملها . وكنا في بيت كل غرفة فيه تصلح أن تكون ساحة أو ملعباً ، وكانت نوافذ الحجرة التي أرقد فيها تطل على فناء البيت وفيه شجرة جميز عظيمة ، تصل أغصانها الذاهبة في الهواء إلى النوافذ ، وكنا نضع قلل الماء على أحد هذه الشبابيك لتبرد ، فحدث أن مدت أمي يدها إلى قلة تريد أن تشرب ، فقلت القلة من بين أصابعها وهوت إلى أرض الفناء فقزعت أمي واضطربت جدا ، وكبر في ظنها أن هذا نذير بموتي ، وخطر لها أن تنحدر إلى الفناء في لجة الليل لترى أسلمت القلة أم تحطمت . . ومن العجائب أن القلة لم يصبها سوء ، ولعل ذلك لأنها وقعت على أرض رخوة طرية كثيرة البلل تحت ظل الشجرة . وقد حدثتني أمي بعد ذلك وهي تروي لي هذه القصة أنها بكت وأنها عجزت عن القيام ، فظلت قاعدة على الأرض غير عابئة بالبلل ، والرطوبة والوحل ، وفي يدها القلة ، والدموع تنهمر من عينيها ؛ دموع الأمل والاستبشار . وقضت ساعة فيما تحس ، ثم نهضت فصعدت ، ودنت مني وأنا نائم ، ولمست وجهي بكفها ، مترفقة محاذرة ، مخافة أن توقظني ، فإذا أنا أتصبب عرقاً ، وإذا بثيابي كلها — كما قالت — عصرة . وأصبحت وقد ذهبت عني وقدة الحمى وأخذت أتماثل »

ويتحدث المازني عن الفرق بين الدراستين الابتدائية والثانوية فيقول : « إن التعليم الثانوي كان انتقالا بأدق المعاني ، فقد صار كل ما في المدرسة إنجليزيا — الناظر والمدرسون والتعليم — ماعدا اللغة العربية ، ولم يكن تدريس اللغة العربية خيراً من تدريسها في الوقت الحاضر ، ولكنا كنا أقوى فيها من تلاميذ هذا الزمان — لا أدري لماذا ؟ — وكان المفتش الأول للغة العربية المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، وكان من أعلم خلق الله بها وبالصرف على الخصوص ، وكان جلاطياً ووتوراً مهيبا ، فكان إذا دخل علينا يسرع المدرس إليه فيقبل يده فيدعو له الشيخ ، ولا نستغرب نحن شيئاً من ذلك ، بل نراه أمراً طبيعياً جدا . وأعتقد أن منظر أساتذتنا وهم يقبلون يد الشيخ حمزة كان من أهم ما غرس في نفوسنا حب معلمينا وتوقيرهم ، فإني أراني إلى هذه الساعة أشعر بحنين إلى هؤلاء المعلمين ولا يسعني إلا إكبارهم حين ألتقي بواحد منهم وإن كنت لم أستفد منهم شيئاً يستحق الذكر » .

وللمازني مع الشيخ حمزة فتح الله حادثة طريفة لا تخلو من دلالة . وكان يؤدي الامتحان الشفوي في الشهادة الثانوية ، والشيخ رئيس لجان اللغة العربية . وندع المازني يروي بقلمه قصته مع الشيخ :

« لما جاء دوري اتفق أنه كان موجوداً ، فلما انتهت المطالعة وجاء دور المحفوظات وكان لها مقرر مخصوص سألني ماذا أحفظ؟ وكنت في صباح ذلك اليوم قد قرأت خطبة قصيرة للنبي صلى الله عليه وسلم فعلقت بذهني وألهمني الله أن أقول إني أحفظ خطبة للنبي ، ففرح الشيخ جدا وخلع حذاءه وصاح « قل ياشاطر ، قل ياشاطر فتح الله عليك » وسترني الله فلم أخطىء ، واكتفى الشيخ بهذا وأعفاني من النحو والصرف والإعراب » .

وقد التقى المازني بالشيخ مرة أخرى . وكان اللقاء في هذه المرة